ماذا بعد الانتخابات في مصر؟

د. صلاح أبو الفضل*

■ بعد مشهد الانتخابات المؤسف والمحبط بدأت قوى المعارضة المصرية تعيد ترتيب صفوفها لتواصل السجال مع نظام اختار طريقا يبتعد في كل يوم عن مصالح الأمة المصرية، ويرفض بإصرار أي تفكير حقيقي في تداول السلطة.

ورغم الإصرار على تعميد المجلس المزور فإن الساحة مليئة بمظاهر التململ والغضب ونفاد الصبر. لكن مشهد المعارضة بكل أشكالها وأطيافها أيضا تغلب عليه الحيرة والتوزع وغموض الرؤية، فرغم الأفكار المتنوعة لم تتمكن فصائل المعارضة من لم الشمل ولم تتمكن من تحديد رؤية متكاملة للتغيير. وفارق كبير بين أن نختلف مع النظام وأن ندعو لتغييره، وبين أن نكون قادرين على ذلك باستراتيجية تتضمن برامج بديلة وخططا واضحة للوصول لهذا التغيير. فلا أحد في المعارضة يختلف على أن المشاركة في الانتخابات، سواء لدى أكثر الأحزاب تفاؤلا أو أكثرها تشاؤما لم يكن هدفها الفعلي إلا الحصول على بعض المقاعد، لتكوين أقلية برلمانية مناسبة لمناطحة الحزب الحاكم تحت قبة المجلس وليس لتغيير الحكومة عن طريق هذه الانتخابات.

وإذا سألنا انفسنا عن الوسائل الفعلية لكيفية تغيير هذا النظام فإننا سنجدها محصورة في خيارات محدودة لكل منها صعوباته ومحاذيره. فهناك من يتصور أن تراكم الأخطاء وتفاقم الأزمات ووقوع النظام في مطبات كثيرة سيؤدي في النهاية إلى أن يفيض الكيل بالشعب ويثور على النظام، وعندها تتقدم فلول هذه المعارضة التي لم تلتق يوما على هدف واحد لتستلم السلطة وتحدث التغيير. وهو تفكير رومانسي غيبي ينتمي الى القرن التاسع عشر، وهو من بقايا أفكار الصراع الطبقي ولم يحدث في مصر أبدا على طول تاريخها. ولنتذكر هبات كثيرة للمصريين كانت تقوم وتقعد وتتم السيطرة عليها أو احتواؤها بالقوى السائدة من دون عناء مثل هبة 18 و19 يناير 1977، ولعل أشهر الهبات الشعبية على الإطلاق هي ثورة 1919، وحتى هذه لم تستطع أن تغير النظام ولا حتى أن تزيح الاحتلال، وكل ما استطاعته هو توكيل الوفد وعودة سعد. واذا سبحنا أكثر في تيار تاريخنا فلعلنا نذكر ثورتي القاهرة الأولى والثانية ضد الحملة الفرنسية وما آلتا إليه.

وهناك من يتصور أن بالإمكان تغيير النظام بالعمل من داخله، بمعنى المشاركة في الحزب الحاكم عن طريق الانضمام بأعداد كبيرة لقوى المعارضة اليه، ثم تغييره من الداخل، وهو أمر شبه مستحيل عمليا وقد حاول البعض ذلك بمبادرات فردية لكنهم وجدوا انفسهم في وحدة شديدة داخل كيان فاقد للرؤية الوطنية وتسود فيه نزعات الفساد والشللية والنفع السريع.

وهناك من يدعو إلى العمل من خلال المشاركة في آليات النظام المتاحة، مثل الانتخابات، وقد رأينا ما نجم عنها، أو من خلال ما يسمى بالهامش المتسع لحرية التعبير، وهو ما يتجلى في نشاط إعلامي محموم تغلب عليه الفوضى الشاملة في التعبير وفي الاتجاهات، بحيث تعادل كل القوى بعضها بعضا في التأثير على الجمهور، ومن ثم تكون حرية الصحافة المزعومة هي أفضل وسيلة لتفريغ الأفكار المعارضة من شحنة التغيير أولا بأول، فلا يبقى إلا الزعم بتوافر حرية التعبير بين سدنة النظام والشعور السائد بالحيرة وضبابية الرؤى بين أفراد الشعب، وهو ما يسلب المواطن أهم أسلحته: الطاقة الحافزة على التغيير.

ماذا يبقى إذن من وسائل للتغيير في هذه الظروف المدلهمة؟ واعتقد ان ذلك يتوقف على التلاقي الفعلي بين الظرف الذاتي الجاهز لقوى معارضة منظمة ومتعاونة، وبين الظرف الموضوعي حين يكون ناضجا لمجتمع يتململ تحت ضغط الأعباء اليومية لحياة صعبة، يخنقه تكدس سكاني يقترب من حافة الانفجار، وتؤلمه مكانة دولية متراجعة في عالم تقدم فيه كل من كانوا وراءه من قبل وهو ينظر مشدوها لا يعرف كيف أو لماذا، وتحاصره الدولة الصهيونية من الشمال والجنوب والجو، فتخنق حتى آماله في المستقبل. هذا التلاقي بين الظرفين لا يمكن انتظاره كمعجزة قد تتم، أو قد لا تتم ولكن كهدف نرسم له الطريق.

وربما كان للإعلان عن البرلمان الموازي في أعقاب الانتخابات ثم التظاهر أمام دار القضاء العالي يوم تدشين البرلمان المزور قيمة رمزية مهمة، لكن ذلك يدخل في إطار رد الفعل العاطفي، مع كل الاحترام لمن قاموا به، فهي خطوات أخذت من دون ترتيب مسبق ومن دون إعداد واضح لما سيجب عمله، وهي تدخل بكل اسف في باب تسجيل المواقف واستباق الآخرين. وما أسعد النظام بمثل هذه المواقف التي تطمئنه الى تشرذم المعارضة ومن ثم عدم فاعليتها. كان الأجدر أن يعقد مؤتمر موسع لكل الأطراف والأطياف وأن يقر الجميع بأن جرحهم واحد وأن الهدف الوطني واحد، يعلو على الأهداف والمصالح الذاتية، ثم ليتدارسوا كيفية العمل الموحد. ألم تكف مأساة هذه الانتخابات الى جانب المأساة القادمة في جنوب السودان لتقنعهم بضرورة التوحد؟ ماذا سيصنع هذا البرلمان وماذا سيكون دوره؟ أهو حزب أم هو ناد أم هو مجرد شكليات غير مدروسة تتبخر قوتها بمجرد تكونها؟ وكيف نتكلم عن عصيان مدني وليس لدينا بديل واحد واضح أو مطلب محدد يلتف حوله الناس.

أما كان أجدى بالمعارضة أن تجتمع فتتدارس ثم تعلن عن تشكيل جمعية وطنية لصياغة دستور جديد يكون جاهزا قبل موعد انتخابات الرئاسة، ويكون ذلك رسالة للشعب المصري بأن هناك من لديه بدائل حقيقية؟

ان برنامجا محددا للمعارضة يمكن أن يكون على النحو التالي:

تشكيل جمعية وطنية لوضع دستور جديد لدولة مدنية، تتشكل من خبراء في القانون الدستوري والقانون الدولي والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد، مع الاستعانة بالخبرات الدولية في هذا المجال. على أن تقدم الجمعية مسودة الدستور في خلال ستة أشهر للمناقشة بين القوى الوطنية ولتمكين الجمهور المصري من الالتفاف حوله.

تشكيل لجنة وطنية موازية لدراسة التحديات التي تواجه الأمن القومي المصري والعربي ولرسم مشروع خريطة حركة للسياسة الخارجية المصرية تحدد ثوابتها وأهدافها، وترسم شكلا جديدا لعلاقات مصر العربية والدولية (إعادة صياغة استراتيجية الأمن القومي المصري/ ميثاق وطني جديد).

تشكيل مجموعة قيادية تُمثل فيها القوى المختلفة لوضع برنامج زمني لفرض التغيير على النظام من خلال طرح خطوات مدروسة نحو التغيير، كالعصيان المدني وغيره للتدرج نحو التحالف مع الشعب وتجميع طاقاته.

ان الذين انتقدوا الدكتور البرادعي كثيرا عليهم أن يعيدوا النظر في أهمية قيادته لعملية التغيير، فلا زال هو من أكثر من تصدى لقضية التغيير بوضوح في الرؤية وسلامة في المنطق، لولا أن حرصه الزائد شكل عنصر إحباط للجماهير المتحرقة شوقا للتغيير. فلنلتف حوله ولندعمه.

* منسق الجمعية الوطنية في لندن

حياة كوكب الأرض في خطر!

نصر شمالي*

■ يزعم الأوروبيون والأمريكيون، وفي مقدّمتهم الأنكلوسكسون البروتستانت، أنّ الحضارات البشرية في جميع العصور هي من إنتاجهم وحدهم، وأنّ مركزها هو قارتهم الأوروبية، تليها استطالتهم الأمريكية الشمالية، فهم الورثة المعاصرون للإغريق والرومان القدامى، وفي تاريخهم يتلخص التاريخ الحضاري العام للبشرية، أمّا خارجهم فلا يوجد غير البرابرة والظلام، سواء في الماضي أو في الحاضر.

بالطبع، إنّ ما يزعمون غير صحيح وهو مشين، فالعمران الحضاري العالمي نهض بجهود وإبداع وتفاعل وتكامل جملة المجتمعات البشرية، وإنه لمن المستحيل علمياً ومنطقياً أن يقتصر تحقيق ذلك على شعب واحد من منطقة واحدة، لكنهم تشبّثوا بزعمهم ومكابرتهم، ورأيناهم في عصرهم الحالي يعطون أنفسهم حقوقاً يمنعونها عن غيرهم (وهذا هو بيت القصيد). فهم إدارة العالم السياسية والعسكرية، وبلادهم مراكز إبداعه العلمي، وإنتاجه الصناعي، ومخزونه المالي النقدي، بحيث باتوا يسيطرون عنوة على حوالي الثمانين في المئة من مجمل إنتاج واستهلاك هذا العالم.

ولكن حدث أنّ حياة كوكب الأرض بمجملها بدأت تضمحلّ تحت وطأة قيادتهم الظالمة الفاسدة، فقد أنهكتها احتكاراتهم الشرهة بصناعاتها السامة، وأوصلتها اليوم إلى مرحلة الخطر الشامل الذي لا يمكن أن يستثنيهم من عواقبه، وصار السؤال المطروح على الأمم جميعها هو: هل سنعيش أم سنفنى؟ وإذا بهم أمام هذه المسؤولية التاريخية المصيرية يتصرفون ويخطبون، ويا للعجب، كأنهم طرف دولي يتساوى تماماً مع الأطراف الدولية الأخرى في المسؤولية عن الكارثة التي حلّت بكوكب الأرض، فالولايات المتحدة لا ترى فارقاً في المسؤولية عن الاحتباس الحراري، مثلاً، بينها وبين مملكة البحرين.

يقول تقرير الهيئة الحكومية الدولية، المعنية بالتغيّرات المناخية السلبية، أنّ الاحتباس الحراري ناجم عن النشاط الإنساني، وأنّ الآثار الخطيرة لهذه التغيّرات باتت جلية وواسعة الانتشار، وأنّ الحاجة لتخفيضات كبيرة في انبعاث غازات الدفيئة أصبحت ملحّة جدّا. وقد قدّمت الهيئة تقريرها إلى المؤتمر الدولي حول المناخ، الذي انعقد في كانكون المكسيكية قبل أيام، وبالطبع فإنّ المقصود بالتعبير المهذب، تعبير «النشاط الإنساني»، ليس نشاط الدول جميعها، بل نشاط الدول الصناعية الثرية الاستعمارية حصراً.

غير أنّ الاحتكاريين الأمريكيين وشركاؤهم لا يريدون الإقرار والتسليم بمسؤوليتهم التاريخية الخاصة عن الكارثة الكوكبية. إنهم هنا، في قضية كهذه، يرون الأمم جميعها متساوية وشريكة في الحضارة، لماذا؟ لأنّ الإقرار والتسليم بمسؤوليتهم وحدهم، أو بمسؤوليتهم أكثر من غيرهم بما لا يقاس في الواقع، يعني التزامات ضخمة مالية في عمليات مكافحة الاحتباس الحراري من جهة، ويعني نقصاً ضخماً في الموارد المالية التي يحققونها الآن من جهة أخرى، وهم لن يأخذوا على عاتقهم مثل هذه الالتزامات ومثل هذا النقص، إلاّ إذا تحمّلته معهم دولة جزر القمر، مثلاً، بالمقدار نفسه وعلى قدم المساواة.

لقد حضر مؤتمر كانكون ممثلو 193 دولة، وفي جلسة الافتتاح خاطبهم بان كي مون، الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة، فحثّهم ـ جميعاً ـ على خطوات من شأنها الاتفاق على مكافحة الاحتباس الحراري. قال بان كي مون منذراً: «إنّ صحة كوكب الأرض في خطر»! كان الأمين العام يخاطب الجميع، فهو لا يستطيع التوجه مباشرة إلى القلة المسؤولة عن الكارثة، ويبدو أنّ الرئيس البوليفي موراليس رأى الخطاب موجّها أيضاً إليه وإلى أمثاله من رؤساء الدول المنهوبة المستضعفة، فأسرع يقول انّ على المجتمعين في كانكون، خاصة ممثلي الدول الثرية، أن يعلموا أنهم مسؤولون عن وقوع إبادة بشرية جمعية، وعن إرسال جموع الناس إلى الموت، في حال إلقائهم بروتوكول مؤتمر كيوتو في سلة المهملات.

كان بروتوكول مؤتمر كيوتو (في اليابان) قد ألزم الدول الصناعية الثرية تحديداً بتخفيض الانبعاث الحراري المدمّر، ونصّ على عدم الدخول في اتفاق جديد، غير أنّ واشنطن رفضت المصادقة على ذلك البروتوكول، وطالبت بتعديله، أو بصياغة اتفاق جديد يلزم جميع البلدان من دون تمييز بتحمّل الأعباء المترتبة على تنفيذه. وبسبب الموقف الأمريكي تجمّد بروتوكول كيوتو في مؤتمر كوبنهاغن التالي، الذي انعقد العام الماضي، وها هو يواصل جموده في كانكون، لأنّ واشنطن تريد المساواة الأممية في تحمّل الأعباء المادية لتنفيذه، لكنها ترفض المساواة والتكافؤ في تقدير الموقف وفي اتخاذ القرارات وفي تحقيق التنمية.

لقد حضر مؤتمر كانكون ممثلون عن 134 دولة نامية، بل فقيرة في الواقع، من عدد الحضور الإجمالي (193 دولة). إنّ حوالي 60 دولة تتمتع بمواصفات تتراوح بين الثرية والصاعدة والنامية حقاً، أمّا الدول الفقيرة (134 دولة منها الدول العربية) فمعظم ممثليها لا يملكون الخبرات ولا الخلفيات الكافية للمشاركة في اتخاذ القرارات، لكنّ بلدانهم سوف تكون ملزمة بقرارات المؤتمر في جميع الأحوال، وهي قرارات قد يجري «تمريرها» على حساب حقوق دولهم (كما يشير حبيب معلوف في صحيفة «السفير» 2010/12/13) فتضيع فرصها في التنمية الدولية المتكافئة، وتفرض عليها التزامات ظالمة.

هكذا يجد الإنسان نفسه اليوم في مأزق عالمي خطير، مناخيّ/ بيئي/ وجودي، لا يقارن بأيّ من المآزق السابقة التي أوقعه فيها قادة هذا العصر الأوروبي الأمريكي الصهيوني على مدى القرون الخمسة الماضية، بما في ذلك الحربين العالميتين وقصف المدن اليابانية بالقنابل النووية، لأنّ حياة كوكب الأرض بمجملها تبدو اليوم عرضة لخطر الدمار الشامل، وهو خطر لم تفت بعد فرصة معالجته، أو إيقافه، أو الحدّ منه. ومع أن الخطر لن يستثني الاحتكاريين الأثرياء الأقوياء، «صنّاع الحضارة» المدّعين العنصريين الذين تسببوا في ظهوره، فإنّ هؤلاء، وقد تجلّدت عقولهم وتحجّرت قلوبهم، يحولون دون العمل على تلافي الكارثة المناخية الماحقة، التي سوف تقع في حال استمرار هذا الخطر وتفاقمه.

* كاتب سوري

نيران تشتعل... والعرب ضحايا ورجال مطافئ

عبد الستار العيّاري*

■ شر البلية ما يضحك... كانت قديما تصاب الأمتان العربية والإسلامية ببعض «البلاوي» والمحن لكن سرعان ما تخرج منها بسلام أو ببعض الأضرار.. أما خلال العقود الخمسين الأخيرة فتتهاطل على أرضنا، وشعوبنا ومقدساتنا البلوى تلوى الأخرى، والمحنة تسابق الأخريات بلا توقف.. وبلا رحمة، كيف لا وكل ممهدات الأزمات توفرت وبكم هائل، جهات تطبخها وجهات أخرى تنفذها والبقية تسهر على توفير الحماية اللازمة للغلب والقهر الذي تعانيه هذه الشعوب والأوطان مما حدث ويحدث لها، فكثرة النعيم والرخاء عادة ما يولد الملل والضجر.. فما بالك بالمآسي والأحزان. والأمة العربية لم تقلق ولم تثر بعد على الكبت والظلم والقهر والحرمان والإذلال واستغلال الآخر لمقدراتنا ودوس كراماتنا وتلويث حتى شرفنا في مزابل الطغاة المجرمين وقتلة الإنسان والإنسانية في كل مكان... وما يبعث على الحيرة والاشمئزاز هو عدم وجود للعرب والمسلمين إلا في الفضائح والحروب وما لف لفها، ورغم الضعف الفادح والخلل البائن في القوى التي تسيطر حتى على أنفاسنا، وفي مقدمتها إسرائيل وأمها الحنونة أمريكا. إلا أن البعض مازال مستمرا في طأطأة الرأس لهم... ومنهما تبدأ جولة محطات هذا الأسبوع.

المحطة الأولى:

وثائق ويكيليكس... الثورة الناعمة من أين وإلى أين؟

أثارت التقارير السرية التي نشرها موقع ويكيليكس موجة غبار لا سابق لها، وضجيجا إعلاميا وسياسيا في العالم لم يشهد له نظير، نظرا للكم الهائل من المعلومات من جهة، ومن جهة أخرى لمحتوى هذه المنشورات التي تحوم حولها استفهامات عديدة من كل الجهات الفاعلة والمفعول بها، حيث تضاربت حول مصداقيتها الآراء والتفسيرات والمواقف وأصبحت تتصدر اهتمام حتى من لا اهتمام لهم بالشأن السياسي في هذا العالم المضطرب بالخراب والفساد، لكن هناك مفارقات عجيبة في ما حصل من تسريبات لحزمة من الوثائق السرية الأمريكية، التي مهما حاولوا تغطية فضائحها وستر عورات زعماء البيت الأبيض، إلا أن رائحة كريهة غطت سماء العالم وعلى ما يبدو لن تتلفها رياح ما اتخذه الساسة الأمريكان من خطوات عشوائية واعتباطية كشفت جليا تخبطهم بين النفي حينا، والملاحقات أحيانا أخرى... ومن يزرع الشوك يجني الجراح، ومن السخف والبلاهة عندما يوجهون تهما، لما حصل من نشر لمعلومات سرية، لضابط صغير في الجيش أو لبعض الأشخاص المشتبه فيهم، أو محاولة مقاضاة المسؤول عن موقع ويكيليكس، لأن الموضوع أكبر من ذلك وأدق وحساس جدا لا يمكن التلاعب به إلا من جهات رسمية قوية ونافذة في بيت القرار الأمريكي، وهذه جملة من التساؤلات والاستنتاجات التي استحوذت على عقلي الذي تلاعبت به هذه الوثائق الغريبة والعجيبة.

أولا: لماذا لم تتطرق الوثائق إلى المحادثات السرية واتفاقيات الأبواب المغلقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، والجميع يعلم عمق الروابط السرية والعلنية، خاصة خلال فترة حكم جورج بوش الابن الذي خاض ظلما وعدوانا حربا قذرة على العراق وأفغانستان، ودعم أيضا حربين لإسرائيل على لبنان صيف 2006 وعلى غزة خريف شتاء 2008 –2009 ؟ والمجازر التي ذهب ضحيتها آلاف البشر من خلق الله، وهما متفقان على مخطط شرق أوسطي جديد فهل إلى هذا الحد ليست هناك تآمرات سرية بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، إنها وثائق العجب.

وهذا يطرح استنتاج وفرضية تورط اللوبي الصهيوني في أمريكا بالتعاون مع صقور الأمس في الحزب الجمهوري من أجل ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد. هو إضعاف وتهميش حكومة البيت الأبيض الحالية وكشف عورات وضعف الديمقراطيين الذين يديرون حكم الولايات المتحدة الأمريكية الآن من أجل إسقاطهم مبكرا. أما فائدة حكومة تل أبيب فهي خلق عداوات عدة لأمريكا مع حلفائها في الغرب ومن العرب من أجل إرباك السياسة الدولية وخلق مظلات موازية تغطي على سياستها القبيحة، لأنهم كالضفادع لا يعيشون إلا في المستنقعات القذرة بالتشابكات الدولية والحروب المتنقلة. كما أن إسرائيل تكمن مصالحها في خلق بؤر خلافات داخلية بين الأنظمة العربية وشعوبها، خاصة بين أنظمة عربية معينة وإيران حتى تضمن أولا الولاء المطلق لهذه الأنظمة لها ولأمريكا وتحويل وجهتها نحو مواضيع هامشية وجانبية، وجعلها تنشغل بمشاكلها الداخلية حتى تصرف نظرها كليا عن القضايا المهمة والجوهرية في الصراع مع احتلالهم للأراضي العربية وتهويد المقدسات الإسلامية، خاصة بعد الضغط الأمريكي الخفيف المسلط عليها، حكومة نتنياهو، ولأول مرة من حكومة أمريكية. أما الأغرب فهو عدم النفي المطلق لكل من اتهمته وثائق ويكيليكس من العرب، في الوقت الذي ثارت فيه ثائرة حكومة أردوغان على الولايات المتحدة وهددت بالملاحقة القضائية في المحاكم الدولية لسفير واشنطن السابق بأنقرة. وهذه المواقف التركية أثبتت ودعمت الخيارات «الأردوغانية» الصادقة والثاقبة والملتزمة بالثوابت والمبادئ السياسية الجديدة في توجهات الحكومة التركية القادمة من بعيد بثورة انقلابية على واقع سياسي دولي فقد كل موازين الاعتدال والأخلاق والضوابط العرفية في علاقات الدول ببعضها البعض. اما الاستغراب الثاني فهو الصدمة التي تعرض لها قسم كبير من المجتمعات العربية حول المواقف السرية لمعظم انظمة عربية سياستها العلنية أحيانا تتضمن مواقف لا تقل خطورة عن «سريات» ويكيليكس، التي يمكن أن تتضمن ما هو أعظم في ما خفي عنها أو منها.

المحطة الثانية:

حريق شمال إسرائيل... نيران تطفئها طائراتنا العربية والتركية وكشف العورات.

الحريق الهائل الذي اندلع في غابات شمال فلسطين المحتلة، الذي مثل الهزيمة الثالثة على التوالي لدولة الاحتلال الإسرائيلي التي تعرت وانكشف ضعفها بعد أن ظهرت حقيقة قوتها المزعومة خلال حرب لبنان وغزة، وهذا ما أثبته الإعلام الإسرائيلي نفسه عندما عجزت لأيام عن إخماد ألسنة اللهب، وهرعت مسعورة تطلب المساعدات الدولية وكان لها ذلك من العرب أولا واخيرا فصالت وجالت الطائرات العربية فوق الأراضي المحتلة لإطفاء النيران وإجلاء المستوطنين في الأراضي العربية وسكانها الأصليين في المنافي والشتات... فبربكم أين كانت هذه الطائرات وغيرها عندما كانت تحترق غزة بشرا وحجرا بنيران «صديقتكم» إسرائيل، ومن قبل لبنان خلال قانا الأولى والثانية... أليست مسخرة غربية جديدة عندما لا تساعد معظم دول أوروبا الكيان الصهيوني عدو الأمة والإنسانية بالأمس وقاتل اليوم الذي وجد العون، فمن أغلق المعبر على الفلسطينيين وهم يحترقون بالفسفور الأبيض، ومنع فرق الإغاثة عنهم وحتى الطواقم الطبية من الدخول للقطاع المحاصر منذ سنوات. ألم يكشف هذا الحريق هشاشة الدفاع المدني وقوات الطوارئ في الكيان الغاصب، الذي سخر كل إمكانياته للقوة العسكرية لمقاتلة العرب والمسلمين وترك هذا المجال عاريا؟ سؤال أثار سبب طرحه سخط وغثيان واشمئزاز كل من سمع وعلم بالطائرات العربية تهرع أسرابا كحمائم السلام لإنقاذ إسرائيل من الاحتراق، والتي ساهمت في محاولات الإنقاذ، وإطفاء الحرائق الغابية أيضا طائرات تركية أضرت كثيرا هذه الخطوة من مصداقية حكومة أردوغان لدى الشعوب العربية التي علقت آمالا كبيرة على حكومة «العدالة والتنمية» لمواقفها المشرفة ضد إسرائيل، واعتبرت هذه الشعوب مساعدة تركيا لإسرائيل خطوة غير مدروسة أو بداية تنازل وتقارب جديد مع حكومة الاحتلال.

المحطة الثالثة:

انتخابات مصر.. تأخر خطوات إلى الوراء ومستقبل قاتم

لن أتحدث كثيرا عن هذه الانتخابات التي مثلت الفضيحة الديمقراطية وحقوق الشعب في تقرير المصير، بعد أن تم إقصاء وتهميش المعارضة بطرق مفضوحة، كما ألفناه في معظم الانتخابات العربية، لكن هذه المرة كانت أكثر سوادا من سابقاتها، في الوقت الذي يتطلع فيه الشعب المصري للتغيير والتعبير عن رأيه وطرح همومه وهواجسه عن طريق صناديق الاقتراع، لكن يبدو أن عملية التوريث والانتخابات الرئاسية المصرية التي ستجرى خلال العام المقبل ألقت بظلالها على الانتخابات البرلمانية التي وصلت حد موت بعض من أفراد الشعب المغلوب على أمره، وفي المرتين انفرد الحزب الحاكم باختطافه لمجلس الشعب حتى يوفر لنفسه حماية كفيلة بوضع كرسي رئاسة الجمهورية على مقاس الساهرين عليه الآن... إنها مهزلة انتخابية عربية متجددة وستؤسس لوضع مصري على كف عفريت في السنوات القليلة القادمة، والحزب الحاكم يعرف ذلك، لكنه مصمم على المضي قدما في تضييق الخناق على معارضيه وعن الشعب المصري الذي كفر بسياسة التبعية للخارج وضرب عرض الحائط بكل الشعب والاحتمالات المفتوحة على كل النتائج الوخيمة.

* إعلامي تونسي

الحرب القادمة... عن أيّ حرب تتحدث؟

د. محمد بريك*

■ حديث الحرب تجده متسيدا في معظم الدوائر السياسية في الغرب ذات الاهتمام بالشرق الأوسط. هو حديث دائم ولكن تُجدده من حين لآخر صفقة طائرات (فانتوم 35) هنا ـ لاستكمال الذراع العملياتية للضربة الإسرائيلية، أو هدية ألمانية ثمينة من غواصات (الدولفين) هناك ـ لتمتين حاجز الردع النووي والضربة الارتجاعية، إن لم تفلح الضربة الجوية في إجهاض المشروع النووي، أو خطط الجيش الأمريكي المفضّلة لسيناريوهات الحرب المقبلة، أو مشاكسات روسية حول الدرع الصاروخية، أو قرب مخاض (القبة الحديدية)، أو تسريبات عن تسلح المقاومة، أو أنباء عن خطوة جديدة في البرنامج النووي ـ وإن تكن في إطار حرق الأعصاب ومناورات السياسة.

وربما من أقدم الأماني وأبلغها للساسة والقادة وأهل الاستراتيجية أن تتفضل عليهم الأقدار (بأيقونة بلّورية) تكشف لهم حجب الغيب وتتخطى حواجز الجغرافيا والأسرار فتنبئهم بعزائم الخصوم ولحظات تفجر الصراع ومساراته. ولكن للأسف فكل محاولات استباق الأحداث والاعتماد على النظر الاستراتيجي الفائق للجزم بالمحطات المقبلة تحبطها صيرورات الزمان وتقلباته. ومنذ فجر الاستراتيجية الحديث، يحذرنا المفكر كلاوزفيتس بخصوص ضعف النظرية ـ والمقدرة ـ الاستراتيجية على التنبؤ. التفكير الاستراتيجي ـ كما يراه كلاوزفيتس ـ ليست وظيفته إطلاق النظر في حجب الغيب أو طرح أوراق الحظ وجمعها؛ بل أن يكشف الكثير من العلاقات والطبائع والمفردات والمحركات في ظاهرة الحرب عموما، وفي صراع بعينه تطبيقا.

لماذا لا يمكننا التنبؤ؟ لأن أي فعل إنساني هو أمر معقد يعتمد على عدد غير محصور من المحركات المتناقضة، وقد يتغلب أحدها فجأة ويسحب المسار إلى مصبّه. وكثير من هذه المحركات العقائدية والمصلحية والنفسية والسياسية وتصور القدرة الذاتية وقدرة الخصوم وحالات الوهن أو التصلب وحسابات الربح أو الخسارة من الصعب تعيينها فضلا عن معايرتها. والحرب هي أشد حالات الفعل الإنساني تشابكا، وتزيدها خاصية التفاعل بين قوتين متصارعتين، كل منهما تقود الأخرى إلى خيارات لم تكن في الحسبان، تعقيدا، ثم تأتي عوارض الحظ والصدفة ـ كما يراها الغربي بماديته ـ ونسميها نحن تصاريف القدر الحاسم لتقطع آمال أنصار المستقبليات. المهم.. هل الحرب قادمة حقا؟ حسنا.. الحرب هي من حتميات التاريخ الإنساني كما تراها المدرسة الواقعية؛ الإطار الفلسفي الحاكم للفكر الاستراتيجي والممارسة السياسية الغربية منذ قرون. الحرب هي حالة دائمة للفعل البشري وحياته (المقرفة والفقيرة والوحيدة والقصيرة) ـ كما يرى توماس هوبز ـ والسلام هو مجرد لحظات هدنة عابرة في تيار الصراع الجارف.

أما إيمانويل كانط فيرى أن التطور الإنساني والرقي المدني يدفعان الجماعة الإنسانية إلى محاولة خلق فرص للسلم المتجدد الذي يحتاج إلى تعهد دائم ـ في الأغلب لا يطول.

وربما يكون لائقا أن نذكر التصور الإسلامي الذي يرى سننية الصراع ـ أو التدافع باللفظ القرآني ـ لتعميق شروط السلم وبناء كيان العدل واستئصال عوارض الطغيان وفتح آفاق الحرية حتى للخصم أو المخالف وقبل الذات.. يقول تعالى في آيات الإذن بالقتال: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) سورة الحج.

ولكن على كل حال لا يحتاج فلاسفة التاريخ السياسي إلى الاستماع لشعاراتنا القديمة التي تعلن أن الصراع (صراع وجود لا حدود) أو للإلمام بتطورات النظرية الجيوسياسية التي تحتم الصراع بين قوتين متنافستين على فضاء استراتيجي واحد ـ للجزم بأن الحرب مقبلة. ولكن إن أردت تنزيل ذلك في منطقتنا العربية في الوقت الراهن فإليك بيانه.

الأمريكي، والغرب عموما حتى بعد ما حدث من تفتت في بنية الناتو بعد الحرب الباردة والتطور في الاتحاد الأوروبي، يتعامل مع المنطقة بمنظور شامل، وليس كما يتخيل البعض بناء على مواقف أو ردود فعل مباشرة. تلك المواقف وردود الأفعال حاضرة في الملفات الجزئية وليس فيها ضبط كامل (كخطاب سياسي في مسألة ما، أو التعاطي مع أزمة عابرة).. أما المنظور الأشمل فهو سلسلة ممتدة عبر القرنين الماضيين ورثها من البريطاني بعد الحرب الثانية وتستهدف ـ وتحقق هذا بالفعل ـ السيطرة على النسيج الإقليمي وثرواته ووضعه الجيواستراتيجي، وما يتضمنه ذلك من حماية وجود إسرائيل كأداة ضامنة لهذه السيطرة. ولاشك أن المحرك الأغلب في هذا المنظور هو عنصر المصالح العليا، التي قد تكون تغلغلت في البنية الثقافية والتجريبية لأوساط النخب الاقتصادية والمجتمعية ومؤسسات صنع القرار والعسكر. هذا لا يعني أن العنصر الايديولوجي ليس فاعلا، ولكن الأصل انه محدود، وقد يتجلى من دون قدرة على قياسه (إذ أن استدعاءه قد يكون مقصودا للتعبئة أو مغازلة بعض الأوساط) في بعض الأوقات أو الملفات بشكل أكبر من المعتاد (حكومة بوش الأولى مثالا).

ومن هنا يظهر أن المسألة استقامت على شبكة من الاستقرار الإقليمي ازدادت نوعيا وأحكمت قبضتها بعد خروج مصر من الصراع العربي الإسرائيلي وتحلل المشروع العروبي، واكتملت بعد انتهاء الحرب الباردة وحرب الكويت: الوجود الأمريكي العسكري في الخليج، والسيطرة على المنافذ والمضايق الاستراتيجية كباب المندب وجبل طارق والمتوسط، ومفارزه البعيدة ذات القدرة على التدخل السريع، ومحور من الحكومات الخاضعة ـ مع هوامش للحركة والمناورة متروكة لها تختلف من حالة لأخرى ـ تقوم بمهمة كبت أي تغيير شعبي قد يسعى لقلب إحداثيات هذا المشهد، ثم إسرائيل كقدرة عسكرية متربصة وقادرة على كسح أي خطر نظامي. وأي محاولة حقيقية وجادة في هذه الأمة لإعادة تشكيل إطارها السيادي وبعث معالم وحدتها وتحررها وتحضرها لابد وأن تشتبك مع هذا المحور بأكمله.

أما بالنسبة لإيران.. فقد كانت ـ قبل الثورة ـ حجر الرحى الأمريكي في السيطرة الاستراتيجية على الخليج، واشتركت مع السعودية في تدشين ما يعرف بالاستراتيجية (ثنائية التراتب) في الخليج؛ لأجل حرمان السوفييت من الوصول لمناطق المياه الدافئة ـ الحلم البطرسي القديم ـ وحقول البترول والتواصل الجغرافي مع براعم النفوذ الثوري. ولا شك أن الثورة الإسلامية اعتبرها الأمريكي ـ ومن معه ـ زلزالا حقيقيا، وكانت الخطوة التالية هي أبشع الحروب التي خاضها العرب دموية في القرن الفائت، التي لم تنقض إلا وقد خلفت أكبر قوة عربية ممانعة كحطام ونظام سياسي مهوس. إيران استغلت انشغال الأمريكي بمغامراته في استكشاف عالمه الجديد أحادي القطبية وبصياغة ترتيبات المنطقة ما بعد حرب الكويت وتصفية القضية الفلسطينية، وأعادت بناء قدراتها التعبوية كدولة ونظام، وراقبت بصبر نمو بذرتها الثورية الأولى في لبنان، واحترفت سد الفراغات الاستراتيجية الناشئة بلغة التحالفات حينا ولغة التحرش المستتر حينا آخر. إيران ـ كدولة مارقة ـ عن المحور الأمريكي وأذرعتها الحاضرة في لبنان وفلسطين والعراق والخليج تمثل كابوسا مدميا (للسلام الأمريكي).

هناك بعض عمليات تنسيق وغض طرف فعلية ـ تحديدا في العراق وبدرجة أقل في أفغانستان ـ بين إيران والأمريكيين، ولكن هذا التنسيق هو بمثابة منافذ خلفية في إطار من العداء المستحكم والتناقض الاستراتيجي الحاد. ولكن حتى لو فكرت بعض مراكز البحوث الأمريكية ـ وليست دائرة القرار حتى الآن ـ في سيناريوهات للتسوية وتقاسم النفوذ، فإن هذا مستبعد في هذه المرحلة لسببين: إيران وإسرائيل.

الاستراتيجية الإيرانية يتداخل في تشكيلها ـ صياغة وتنفيذا ـ ثلاثة محركات أساسية: العنصر العقائدي الذي انبنى عليه النظام الثوري والقائم على نظرية الانتظار الإيجابي أو التمهيد للإمام المهدي أهم هذه المحركات. فبعد عقود من التغييب الشيعي والانتظار السلبي للإمام، عدا فترة محدودة حين استخدمت الدولة (النيابة الخاصة) للاستهلاك المحلي والتعبوي، يأتي الإمام الخميني ويحول الطاقة العاطفية والمزاجية اللامحدودة في الكيان الشيعي، وعبر نفس المسارات الذهنية مع تحويل قليل للبوصلة، إلى طاقة ثورية دافقة لا يقف أمامها شيء. والتيار الأساسي في الثورة وامتداده الحالي في دائرة المرشد والحرس الثوري، يرى مهمته في الحياة التمهيد للإمام المهدي، ولا يكون ذلك إلا عبر التّماس بمهام أساسية أهمها الصراع مع الطاغوت الأكبر وربيبته ومهام التحرير والتمدد الشيعي.. نعم، لا ننسى أن الطاقة الثورية الدافقة تلك ليست خالية من البعد الطائفي وتختزن داخلها مرارات تاريخية ماضية ومعاصرة، غير أن المحرك القومي والرغبة في استدامة السيطرة الاستراتيجية على المحيط الإقليمي هو حاضر كذلك ومن طبائع تحول الثورة إلى دولة في أكثر مناطق الجغرافيا التهابا وفرصا. أما العنصر الثالث ـ والحاسم في أحوال بعينها ـ فهو العنصر البراغماتي الذي يرى مصلحة النظام وبقاءه المصلحة الوجودية الأهم. هذا العنصر عميق الجذور في الخبرة الفارسية وأخرجته من ـ قمقمه التاريخي ـ حرب دموية شرسة لم تدع للثورة فرصة الهناء بمثالها الثوري، وفاقمته إشكالات البناء السياسي وتجويفات الجدار الشعبي؛ فيكون ديدن القيادة الثورية العليا ـ في لحظات الخطر الوجودي ـ التضحية بهذا المثال الثوري في سبيل المتاح البراغماتي الأدنى.. وعلى هذا النحو انتهت الحرب مع العراق. ومن المفارقات أن ظهور العنصرين الأخيرين في تشكيل المسلك القيادي الأعلى لدولة الثورة كان تصديقا لتقريرات عاشق الثورة ومنظرها الأول وتنبؤاته .. الدكتور الشهيد شريعتي! إذن فإيران بعيدة بالمطلق عن أي فرصة للتسوية مع الأمريكي ـ فضلا عن إسرائيل ـ في هذه المرحلة، ولا يدفعها لتلك التسوية إلا حالة خطر وجودي للنظام لا تشكلها إلا مراحل تصعيدية في حرب مقبلة، يتم فيها إعادة اختبار العلاقات بين المحركات الثلاثة ووزن القوة الذاتية تجاه القوى المصارعة، وتنشأ حينها مساحة للتسوية. ولكن هذا بشرط قبول الطرف الأمريكي كذلك للتسوية، وهذا يستلزم معاناته خسائر استراتيجية واقعة ـ أو مرتقبة ـ في تلك الحرب أيضا.

وبالنسبة لإسرائيل، فعلى الرغم من أن فكرة التسوية مع إيران مطروحة بشدة في دوائر بحثية واستخباراتية، إلا أنها مهجورة سياسيا بسبب النمط الاستراتيجي ـ أو اللا استراتيجي ـ الإسرائيلي السائد، والقائم على النزعة العملياتية العنيفة والاستباقية وعدم التفكير في المآلات السياسية والآثار الاستراتيجية للعمل العسكري؛ بسبب حساسية الكيان الشديدة تجاه سؤال الأمن؛ تلك الحساسية التي فرضتها التجربة التاريخية في الشتات ومعتقلات النازي والوضع الديموغرافي الملتهب والجيواستراتيجي الخانق، فضلا عن تركيبته السياسية غير المرنة تجاه أي نوع من التسوية والمتحولة ـ بعد عهد المؤسسين ـ إلى يد حفنة من أصحاب الكروش المتخمة، الذين من الممكن أن يضحوا بمصالح حقيقية لأجل مزايدات سياسية ضيقة، كما حدث في حرب غزة 2008، ثم هناك كذلك عدم الثقة في خيارات الإيراني واستجاباته. وكل هذا يدفع الإسرائيلي إلى عدم التسوية كذلك.

وإسرائيل ـ كما نعلم هي حلقة الوسط في بناء الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، وما لم تقبل إسرائيل بتسوية، فأمريكا لن تفعل.

استراتيجيا.. إيران قوة حقيقية، من دون الاتكال على مبالغات الإعلام الإيراني. قوة إيران الحقيقية في المجال التعبوي وحرب العصابات ووضعها الجيواستراتيجي وذراعها المقاوم في لبنان وفلسطين ويدها الديموغرافية في دول الخليج، ولكن كقوة صاروخية وبحرية وجوية غير تقليدية ينقصها الكثير. وهذه مشكلة في مسألة «الردع النووي»؛ فلكي يتم هذا الردع تلزمه قدرة نووية ولو قليلة كمّا، والأهم، تلزمه أدوات ناقلة لتلك القدرة وحماية للمنشآت والقواعد، وكل هذه العناصر هي متطلبات (مصداقية الردع النووي). ولكن في المقابل حالة الردع النووي هي حالة ذهنية يُدفع إليها الخصم عن طريق رسائل إعلامية وسياسية ومخابراتية وأحيانا حتى عسكرية، بشكل غير مباشر. ولهذا فهو عرضة للتحيزات العقائدية والنفسية والذهنية؛ فيفشل الردع مثلا إن لم يقبل الخصم أيا من هذه التحيزات. وأحيانا ـ كما في حالة إسرائيل ـ يحدث العكس وتقل تحيزات (الثقافة الاستراتيجية) والهوس الأمني من متطلبات (مصداقية الردع) عند الخصم.

ولهذا.. فإسرائيل سترتدع في حال امتلاك إيران النووي ـ طبعا إيران وإسرائيل كأي طرفي معادلة ردع سيتفقان مرحليا على الخطوط الحمر لكل منهما، وهذا سيقيد إيران قليلا في أن تتحرك كما تهوى ـ حتى مع علم الجميع بقصور الإيراني في نقل النووي وحمايته. ولكن أي معادلة تحيّد البعد النووي الإسرائيلي لا تستطيع إسرائيل أن تتعايش معها ولا أن تخوض بجوارها صراعا تقليديا؛ فالمشروع النووي هو جرعة الأمان الأساسية التي يعتاش عليها الكيان، كما كان يسمى في إسرائيل (ميكرع هلكول) أي قبل ضياع كل شيء. ولكل هذا فإن كثيرا من الدوائر الغربية ترى أن ضربة إسرائيل لإيران حتمية حتى وإن كانت كارثة بالمنظور الاستراتيجي ـ على المصالح الغربية بالطبع.

ربما هناك إشكالات حالية في القدرة العملياتية للضربة أو الدفاع العملياتي، وربما حالة من الاختناق السياسي في إسرائيل تقلل من المخاطرة الاستراتيجية المطلوبة، وربما تدور بعض الصيغ الاستراتيجية في مؤسسات القرار الإسرائيلي لعقد صفقة مع السوري أو قصقصة الأجنحة الإقليمية أولا، وربما يعتمد الإسرائيلي على مصادر مخابراتية تنبئه بتأخر المخاض النووي لإيران، وكل هذا من شأنه التلكؤ في أخذ قرار الحرب. ربما كل هذا ومع ذلك، فقد تهب عواصف القدر قريبا جدا فتفرض على منطقتنا، في أي لحظة، صيفا حارا، أو شتاء ثقيلا، أو خريفا كئيبا. أما الربيع فقد افتقدته أمتنا منذ زمن.

* كاتب مصري مقيم في بريطانيا